



الامتنان حالة من الشكر القلبي

بينما يقف الشاكر عند حدود رد الفعل المتولد عن مشهد عطاء أو دفع بلاء، فإن الممتن يعبر عن إدراكه لأسمى معاني الوجود الإنساني على هذه المعمورة !

حين نستعرض برفق منظومة النعم من حولنا، بدءاً من ذواتنا ووصولاً إلى الكون وظواهره، ندرك كم نحن غافلون عن معظمها، وكيف أن الاعتياد والاستغراق في يوميات العيش يؤديان إلى نوع من التطبيع معها باعتبارها أمورا عادية.

يغمض الإنسان عينيه ويخلد إلى النوم، بينما عشرات وربما مئات الآليات المبهرة وشديدة التعقيد مستمرة في عملها ليستمتع بنومه، ثم يصحو ليستقبل يوماً عادياً بنظره؛ فلا جديد غير شروق الشمس وغروبها، واللهات خلف الأماني البعيدة، أو الفرار من هموم ألقها بذاته غفلة أو عنوة، ثم لا يدري أين المفر ! ولو توقف لحظة ليتساءل عن الحكمة من كل هذه المخلوقات الخادمة لوجوده لاكتشف في باعث الامتنان سر سعادته، وصفاء نفسه، وسكينة روحه.

في الامتنان يتجدد اعتراف العبد بعجزه عن مواصلة العيش لولا فيض الكرم الرباني. إنه وضع لا تنفصل فيه الأسباب عن المسبب، ولا يدعي فيه المنجز البشري استقلاله عن الغائية، و الحكمة من وجوده: {إني جاعل في الأرض خليفة} البقرة:30. إن هذه الآية هي فاتحة العطاء الذي يستدعي الامتنان العميق. وما نعاينه اليوم من آلام ومآس، ومشاهد ظلم وفساد يؤكد تلك المهمة ولا ينفىها؛ فكلما انزاح الإنسان عن وظيفته فإنه يلقي بنفسه في دوامة التيه والحيرة والأسى. أما إذا رى قلبه على مشاعر الامتنان، والجمع بين مشاهدة النعم واللوم على التقصير، فإن الألفاظ الإلهية تشملته بمعاني الطمأنينة واليقين، وإدراك عواقب الأمور.

أفلا أكون عبدا شكورا؟"، هكذا رد النبي ﷺ حين رثت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لحال قدميه المتورمتين من طول القيام. إن عظمة الامتنان تكمن في الفعل لا في القول فحسب. وقد وجه النبي ﷺ أنظار أمته إلى ما ينطوي عليه باعث الامتنان من إيجابية كفيلة بتبديد الهموم، وتخفيف الأحمال، والقطع مع مشاغل الدنيا التي تذهب بالأعمار!



جمع النبي ﷺ حذافير الدنيا في ثلاث نعم: أن تصبح آمنا في سربك، ومعافى في بدنك، وعندك قوت يومك. ثلاث عطايا تستوجب الامتنان لأنها تمثل حقيقة السعادة التي يجهل أكثر الناس السبيل إليها. ولو تأملنا الآفات التي تضحج بها المجتمعات البشرية لكان مردها إلى الغفلة عن تلك الأصول الثلاثة للحياة الطيبة:

فالفوضى والاضطرابات والحروب تبدد صفاء العيش.

والآلام والأوجاع تنغص على الإنسان وجوده.

أما الأزمات الاقتصادية فتصيب الناس بالجنون، وتبرر دواعي الاقتتال وسفك الدماء.

غير أن أهل الشكوى يرون في ذلك مقوما عاديا من مقومات الوجود البشري، ولا يستدعي الوقوف عنده، وإنما المضي قدما لمزيد من السيطرة والتملك، والتبديد.

إن إعادة النظر في فهمنا السائد للنعم خطوة أولى لبلوغ حال الامتنان الدائم، والشكر القلبي الذي لا ينتظر مناسبة أو حدثا. **ولابن القيم** كلام رصين في (الفوائد) إذ يقول: “النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجو، ونعمة هو فيها ولا يشعر بها”. وتام النعمة الأولى يكون بالشكر عليها، أما الثانية فيكون بالدعاء والاجتهاد بالطاعة، في حين أن الثالثة هي خلاصة الامتنان، وثمره باطنة بين العبد وربّه. لذا كان من دعاء **ابن الجوزي** رحمه الله قوله: اللهم أرنا الأشياء كما هي!

يُحكى أن أعرابيا دخل على **هارون الرشيد** فقال: يا أمير المؤمنين، ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعزّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لشكرها، فأعجب الرشيد بذلك وقال: ما أحسن تقسيمه!

وأعظم الناس امتنانا هم الأنبياء، ثم الصالحون الذين أثمرت محبتهم لله وخشيته نفاذا لعمق الأشياء و الظواهر. وأبلغ تجلياته هو تفاعلهم مع البلايا بغير منطق الشكوى والاحتمال، بل يكونون في حال من الرضا والإقبال على الله، واليقين التام بأنه أرحم الراحمين، وأن المحن تثمر المنح والعطايا.

حين تستشعر الامتنان فإن أداءك للفرائض لا يعكس امتثالا للشريعة فحسب، بل يصبح سعيا نحو المزيد من القرب، وتغذية الروح بما ترمي إليه الجوارح من معاني المحبة والتذلل والخضوع.



وحين يغمرك الامتان يتملك نفسك توق شديد للتضحية بكل شيء في سبيل مرضاته تعالى، وتحلق روحك مع الملائكة، فلا يكون حالك في الدنيا إلا كحال الراكب: استظل بظلها ثم ارتحل !